العلم في الغربة وطن والجهل في الوطن غربة "ابن رشد"
مأزق الفكر التاريخي التوراتي

أ. حسين محمد سالم*

المبحث الأول: تكوين الفكر التاريخي اليهودي:

ليس غريباً أن توجد جماعة اسمها بني إسرائيل في وقت ما وفي مكان ما، وليس غريباً أن يصير لهذه الجماعة دين تدين به وهو اليهودية، ثم تنتسب إليه فيصير اسمها الثاني الملازم للأول وهو "اليهود" حتى صار المصطلحان وجهان لعملة واحدة، واستقر في أذهان المؤمنين به وكثير من غير المؤمنين به أن ذلك من حقائق التاريخ التي لا مجال لإنكارها أو حتى مجرد التشكيك فيها، خاصة أن هناك الكثير من "البديهيات اليهودية" التي يحرم على العقل الإنساني الخوض فيها –مثل "الهولوكوست" (Holocaust)**!) وقد أضيفت إلى المحرمات الإنسانية التي لا تقبل الجدل!!.

رسم الفكر التاريخي التقليدي ولقرون عديدة لهذين المصطلحين نموذجاً تاريخياً متكاملاً، له شعبه وأرضه وسلطته بل وحضارته المتميزة، وكان كل ذلك من خلال وثيقة تاريخية وحيدة هي التوراة، أو العهد القديم من الكتاب المقدس، وقد بلغ من سطوة نصوص تلك الوثيقة على ذلك النموذج التاريخي درجة تجاوزت اللامعقول، حتى أن الفكر الاجتماعي أو الفلسفي أو التاريخي والغربي على وجه الخصوص، يمكنه أن يجادل بل ينكر حقيقة وجود الإله لكنه لا يستطيع أن يجادل أو ينكر المفاهيم والتصورات وما ينتج عنها، رغم أن تلك التصورات والمفاهيم موحى بها من عند ذلك الإله كما يرى المؤمنون بها.

إن دراسة النصوص التوراتية بعمق تشير إلى أنها "بحيرة" راكدة آسنة ساهم في تكونها رافدان أساسيان هما الأيديولوجية القومية المزيفة والأيديولوجية الدينية المنحرفة (السواح، 2003، 9) وهي بحيرة غرق في وحلها الكثير جداً من الباحثين من الشرق والغرب على حدٍ سواء، وآية ذلك النقل الواسع من جانب المؤرخين والمفسرين العرب المسلمين، متجاهلين التحذير الإلهي*** والنبوي الصريح، حتى صار بعضهم غواصاً ماهراً في تلك البحيرة النتنة.

---

* قسم التاريخ، كلية الآداب، الجفارة.

** وهو المصطلح الذي يطلق على المذبحة المزعومة التي قام بها الألمان ضد اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية دون عداهم من الشعوب، كما يروج لذلك زعماء وأنصار الحركة الصهيونية وهذه الكلمة يونانية الأصل وتعني المحرقة.

*** ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِأَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾ (الكهف: 5)

لا جدال في أن لكل جماعة أياً كان تصنيفها –إثنية أم دينية أم علمية أم رياضية أم أدبية– تاريخها، الذي وضعته لنفسها أو وضعه لها الذين يهتمون بالتاريخ، ولا جدال أيضاً في أن الكثير من تلك الجماعات قد أفرزت من بينها من يقوم بهذه المهمة، وذلك ليس عيباً في حد ذاته، بل أنه قد يكون ميزة، لأن أولئك ربما كانوا الأقدر على كتابة ذلك التاريخ، بحكم قربهم من المصادر التي تكَون مادته، إذا ما استطاعوا التخلص من آفة قاتلة لعلم التاريخ، وهي تحويله من تسجيل ونقد صادق أمين للوقائع، إلى مجال للدعاية وتدوين الخرافات والأساطير*، والاقتراب بالتالي من العمل الأدبي الذي تحكمه قاعدة الحسن والقبح، وليس الصدق والكذب، أو بمعنى آخر خلق التاريخ وليس تفسيره، وتسخير ذلك التاريخ المختلق لخدمة الحاضر (سعيد، 1997، 87)، والمعروف أن علم التاريخ قد عانى من ذلك في بداياته الأولى، كما يظهر ذلك عند المؤرخ المصري "مانيثيون"** أو هيرودوت الإغريقي (السواح، 2003، 8) على سبيل المثال، وغيرهم الذين يقتبسون قصصاً من الماضي ويتكئون عليها لمجرد أنها قصص قوية ومؤثرة ومصاغة بطريقة تجعلها أقرب إلى الحدث التاريخي (Whitelam، د.ت).

لقد أصابت هذه الآفة الفكر التوراتي، حيث جعل خرافات وأساطير الجماعة اليهودية، التي تكونت عبر مراحل وأحداث تاريخية كثيرة، مادة للكتابة التاريخية، ومصدراً للتأريخ لتلك الجماعة، "من خلال ابتكارات خيالية لماضي يعاد بناؤه بشكل تعسفي" (لومير، 1999، 236) وكانت تلك بداية للفكر التاريخي التوراتي، وهي بداية طبيعية، إذا أخذنا في الاعتبار الثقافة التاريخية لذلك العصر الذي بدأت فيه، أسوة بباقي المحاولات الأخرى، كالمصرية والإغريقية التي أشرنا إليها سابقاً.

---

* وتعني بذلك المفهوم الشعبي لمصطلح الأسطورة، وليس حقيقة الفكر الأسطوري كما بات معروفاً، حيث لم تعد الأسطورة في عرف معظم الباحثين مرادفاً للخيال أو الخرافة، بل صارت شكلاً من أشكال الكتابة التاريخية البدائية المغلفة بالمبالغة والمحاولات الساذجة لتفسير الأشياء حسب التطور الفكري للمجتمعات التي أنتجتها، وصارت بالتالي مصدراً مهماً للتاريخ ومجالاً واسعاً للدراسة والتأمل. انظر في ذلك: شتراوس، كلود ليفي، (1986)، الأسطورة والمعنى، ت: شاكر عبد الحميد، بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، ص41–62، وكذلك: زكي، أحمد كمال، (1985)، الأساطير، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص37–38، وأيضاً: كسيرو، أرنست، (1975)، الدولة والأسطورة، ت: أحمد حمدي محمود، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص65–73، وأيضاً: محفوظ، رفعت، (يناير–مارس 1984)، لمحة عن الأسطورة، مجلة الإنسان، القاهرة، السنة 5، العدد 17، ص10–12، السواح، فراس، مغامرة العقل الأولى، مرجع سابق، ص13، وكذلك: الياد، مرسيا، (1991)، مظاهر الأسطورة، ت: نهاد خياط، دمشق، دار كنعان للطباعة والنشر، ص21، ومن المراجع الأجنبية نذكر: Frankfort Henry and Frankfort Henry, A., (1946), "Myth and Reality" in: Before Philosophy, Penguin Books, U.S.A, p. 1.

** مؤرخ مصري عاش في القرن الأول ق.م، وقد وضع كتاباً في تاريخ مصر، وتاريخ ملوكها، وإليه ينسب تقسيم التاريخ المصري القديم إلى أسرات حاكمة، وقد تعرض كتابه لنقد شديد من جانب اليهود، الذين رأوا فيه انتقاص من مكانتهم وتحقير لهم، انظر في ذلك: بدوي، أحمد، (1950)، في موكب الشمس، ج2، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص249، وكذلك: فخري، أحمد، (1994)، مصر الفرعونية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ص63.

ارتبطت هذه المرحلة بحادثة الأسر البابلي المزعومة*، وبشخصية "عزير وهو بني الكاتب"** الذي تنسب إليه جمع وكتابة أول نسخة للتوراة في مدينة بابل (السواح، 2003، 9)، أثناء تلك المرحلة من تاريخ الجماعة اليهودية، وقد استفاد هؤلاء من الظروف السياسية القائمة والمتمثلة في الصراع بين الدولة الكلدانية من جهة والفرس من جهة أخرى، والذين كانوا يسعون بكل قوة إلى احتلال بلاد الرافدين، فتحالفت القوة الاستعمارية الفارسية مع الجماعة اليهودية ضد عدوهما المشترك، وكان مقابل ذلك تشجيع الملك الفارسي قورش لقيام أول كيان ذا صبغة سياسية للجماعة اليهودية في مدينة القدس عام 539ق.م (انجيل متى، الإصحاح 10، آية 6).

عندما أمر الملك الفارسي المنتصر بعودة اليهود المرحلين إلى القدس وكانت تلك فرصة تاريخية لربط الأساطير اليهودية بالواقع، من خلال الثقافة الواسعة التي اكتسبها المرحلون اليهود في مدينة بابل، التي كانت إحدى عواصم الثقافة العالمية في ذلك الوقت، ومن اطلاع هؤلاء على قدر كبير من الثقافة التاريخية لدى الشعوب الأخرى، مما حفزهم على إيجاد موطئ قدم تاريخي لجماعتهم، وذلك بصياغة قصة تاريخية في ثوب ديني، وهي التي عرفت تالياً بالتوراة والتي واجهت في ما يبدو مقاومة من طرف بعض أعضاء الجماعة نفسها.

كما يظهر في الخلاف الشديد، وانقسام الجماعة إلى قسمين، والذي عبر عن نفسه ظاهرياً في الاختلاف حول موقع بناء المعبد اليهودي في القدس، الذي كان رمزاً لذلك الكيان المزعوم*.

---

* يقال أن عزرا كان مستشار للملك الفارسي للشؤون اليهودية، والذي تصفه التوراة بأنه: كاتب ماهر في شريعة موسى، التي أعطاها الرب شريعة لإسرائيل،... لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب، والعمل به، وليعلّم إسرائيل فريضة وقضاء،... عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء "انظر في ذلك: سفر عزرا، إصحاح 7، الآيات من 5–10. والمعلوم أن هذا النص التوراتي الأصلي إن وجد حقاً لا يزال مفقوداً، ولا دليل على وجوده سوى النص اليوناني الذي يقال أنه قد ترجم عنه، وهو ما جعل التوراة العبرانية، تتخذ وضعاً شبه قانونيَ منذ القرن الثاني قبل الميلاد، لأن الترجمة اليونانية للتوراة التي قام بها يهود الإسكندرية، قد اكتملت في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد وذلك في عهد وبأمر من بطليموس فيلادلفوس 285–246ق.م وهي ما تعرف بالسبعينية "Septuagint" حيث يقال أن سبعين كاهناً قد شاركوا في ترجمتها والترجمات التي بين أيدينا اليوم إلى اللغات الحية بما قيها العربية، تعتمد مخطوطات للتوراة يعود تاريخها إلى القرن التاسع أو العاشر الميلاديين. وهذا ما يقودنا إلى إلقاء نظرة عامة على تاريخ النص التوراتي، وترجماته القديمة المتنوعة التي أعقبت الترجمة السبعينية، انظر: Worth, J. H. Charles, (1983), The Dead Sea Scrolls, Penguin Books, New York, p. 2.

** زعمت التوراة أن بني إسرائيل قد تعرضوا لعملية ترحيل جماعية من فلسطين إلى بابل على يد الفاتح الكلداني "نبوخذ نصر" (586–539ق.م) بعد أن دمر دولتهم المزعومة والتي كانت عاصمتها القدس، وهو ما لا يتوافر عليه أي دليل تاريخي، ولم تكن الحادثة في الحقيقة سوى نقل بعض مثيري القلاقل من الشام إلى بابل حتى يكونوا تحت رقابة السلطة الكلدانية، وكانت تلك سياسة رسمية للكلدانيين ومن قبلهم الآشوريين مع كل الثائرين على حكمهم انظر في ذلك: سعيد، حبيب، (د.ت)، المدخل إلى الكتاب المقدس، القاهرة، ص350.

* ظهر الخلاف في تكوين فرقة السامريين، الذين كانوا يعارضون إعادة بناء الهيكل المزعوم، وإعادة بناء أسوار مدينة أورشليم التي يقال أن "نبوخذ نصر قد هدمها أثناء هجومه الثاني على سوريا، فقامت هذه الفرقة ببناء معبد لها على جبل "جرزيم" بالقدس، قرب منطقة "شكيم"، وقد تسبب ذلك في انفصال كامل بينها وبين مجتمع أورشليم. انظر حول ذلك: Unger, M. F., (1970), Unger's Bible Dictionary, Chicago, p. 959. واعتماد على نصوص التوراة نعرف أن الخلاف بين الطرفين كان حول المكان الذي يجب أن يعاد بناء الهيكل فوقه، حيث يرى السامريون أن يبني فوق جبل جرزيم بمنطقة شكيم، وهي المنطقة التي استقر فيها إبراهيم عند وصوله إلى

المبحث الثاني: ظهور المسيحية وتطور الفكر التاريخي التوراتي:

كان ظهور دعوة المسيح عليه السلام نقلة كبيرة للمشروع التاريخي التوراتي، ولا يعني ذلك قبول هذه الجماعة للدعوة الجديدة وصاحبها، بل أنهم كانوا من أشد المعادين لها، خاصة بعد أن صرح عيسى عليه السلام بفساد عقائدهم المنحرفة ووصفهم "بخراف بني إسرائيل الضالة" (اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ) (السواح، 2003، 9)، وقد أدرك التوراتيون سريعاً أن هذه الدعوة الجديدة قد تقضي على مشروعهم بكامله، فتنكروا حتى لذلك الرجل الذي نسبوه لبني إسرائيل وطعنوا في شرف أمه مريم العذراء، وقالوا أنه ابن يوسف النجار "رجل مريم"، وتحالفوا مع الوثنية الرومانية للقضاء عليه.

وقد كانت خيبة أمل هؤلاء وحلفاؤهم الرومان كبيرة، عندما رأوا الإخلاص الشديد من طرف أتباعه، فلجأوا إلى وسيلة جديدة بضرب هذه الدعوة من داخلها، بإظهار اعتناقها، ومن ثم تحريفها، حيث تحولت إلى ديانة وثنية تثليثية بعيدة كل البعد عن التوحيد الخالص، ومن ثم ربطها باليهودية حتى صار كتابها جزء لا يتجزأ من التوراة التي وضعها عزير، تحت اسم العهد الجديد، وهكذا اكتسب الفكر التاريخي التوراتي حقه الشرعي في التسلل إلى التباع الدين الجديد، حتى صار أولئك الأتباع أشد تمسكاً به منهم، وهو ما نلاحظه الآن في الانحياز الغربي الأعمى للمشروع التوراتي.

ونستطيع القول أن اعتناق الدولة الرومانية للعقيدة المسيحية التثليثية، كان أخطر ضربة تلقتها تلك الدعوة الجديدة، وأكبر نصر للمشروع التاريخي التوراتي، حيث انتقل من أسطورة بدوية قبلية إلى مشروع دولي يفرض نفسه على الفكر التاريخي العالمي، "وهكذا طغى الأدب على التاريخ، وتعالت تهويمات القصص والحكايا فوق أحداث الماضي، وتحولت الكتابة التاريخية إلى صياغات عقائدية وبلاغية محملة بالعواطف والانفعالات"، كما يقول أحد الباحثين (سفر يوحنا، الإصحاح 21، الآيتين 2–3). ومن هنا بدأنا نسمع عن القدس التوراتية كأعظم مدينة في العالم القديم، تتضاءل أمامها بابل الرافدية أو "طيبة" النيلية، وتتباهى بهيكل سليمان الذي لم يُبن مثله على مر الأزمان، أو كما يقول يوحنا: "وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء، من عند الله كعروس مزينة لرجلها، وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هو ذا مسكن الله مع الناس، وهو يسكن معهم وهم يكونون له شعباً" (Kenyon, 1974, 110) إلا أن هذه الأوصاف

فلسطين كما تزعم التوراة، و"شكيم هي مدينة نابلس الحالية على بعد 60 كيلومتر تقريباً شمال القدس" وهو ما يعني أن المعبد لديهم هو إحياء لذكرى النبي إبراهيم، وليس إعادة لهيكل سليمان المزعوم، بينما يرى مخالفوهم أنه يجب أن يبنى فوق جبل عيبال، انظر في ذلك: سفر التثنية، إصحاح 27، آية 4، وسفر التكوين، إصحاح 12، الآيتين 5–6، ويبدو أن هذه التسميات كنعانية لأن التوراة تقول: وكان الكنعانيون حينئذ ساكنين في الأرض، سفر التكوين، إصحاح 13، الآية 7.

الشعرية لم تصمد أمام الواقع المرير الذي أكد أن الباحثين لم ولن يعثروا على شيء يذكر يشير إلى تاريخية وواقعية هذا الوصف*.

إن التحالف بين الفكر التوراتي والمسيحية ذات الصبغة الرومانية الوثنية، قد فرض سطوته لقرون عديدة على الكتابة التاريخية، حتى صارت له مصطلحاته ومحدداته، التي انتشرت مع انتشار نفوذ الحضارة الغربية في قارات العالم كلها، وبات الخروج عن تلك المصطلحات والمحددات من المحرمات العلمية، التي يوصف من يمارسها بالعنصرية والتعصب والتخلف، ومن هذه المصطلحات فكرة "معاداة السامية"** (Anti-Semitism) التي تلصق بكل من يحاول أن يبدي رأياً مخالفاً لما جاء في المرويات التوراتية أو نقد أي تصرف يصدر من الذين يدعون الانتماء إلى الجماعة اليهودية، ولو كان ذلك الإنسان من مجتمع لا علاقة له البتة جغرافياً أو تاريخياً أو ثقافياً بفكرة السامية، وقد وصل الأمر إلى درجة كبيرة من التطرف في هذه الدعوة إلى درجة إنكار بعض الحقائق التاريخية الموثقة، ومحاربة من يصرح بها، واتهامه بمعاداة السامية، لأن ذكر هذه الحقائق لا توافق هوى الفكر التاريخي التوراتي، وخير مثال على ذلك ما حدث للفيلسوف الفرنسي "روجيه غارودي" (وايتلام، 1999، 12).

لقد وصلت سطوة الفكر التاريخي التوراتي المتحالف مع المسيحية الوثنية الغربية إلى درجة إنكار التقسيمات التاريخية المعتمدة على أسس حضارية إنسانية عامة، ووضعت محلها تقسيمات تتوافق مع الرواية التوراتية، وهكذا صار عصر البرونز الأول عصر الآباء الأوائل، وعصر الحديد هو عصر الفتح، أي الدخول الإسرائيلي لأرض الميعاد بعد خروجهم من مصر*.

---

* السامية هي الفكرة التي جاء بها العالم النمساوي "شلوتسر" (August Ludeig Schlostzer) الذي اقترح أن اللغة العبرية، واللغات الشرقية القديمة كلها، تعود إلى لغة أصلية واحدة منقرضة يجب تسميتها باللغة السامية، استناداً إلى أن التوراة ترجع نسب اليهود الذين يتكلمون العبرية إلى سام بن نوح، ومن هنا ظهر مصطلح الساميين كوصف لكثير من سكان الشرق القديم، ثم صار مقتصراً على اليهود دون غيرهم، وكان أي نقد لهذه الفكرة هو تعصب وعنصرية ضد اليهود كما يرى أنصار الفكر التوراتي، انظر: علي، جواد، (1980)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، بيروت، دار العلم للملايين، ومكتبة النهضة بغداد، ص234، وكذلك: سوسة، أحمد، (د.ت)، العرب واليهود في التاريخ، ط2، بغداد، الإعلان والنشر للطباعة، ص128.

** في عام 1990 صدر في فرنسا وبضغط من المؤدين للحركة الصهيونية قانون جديد باسم (فابيوس جاسبو) لمحاكمة كل من يحاول إنكار المحارق النازية لليهود في ألمانيا وقد قدم غارودي إلى المحاكمة عام 1998 بسبب آرائه في كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) الذي أنكر فيه خرافة أسطورة حرق 6 ملايين يهودي في أفران هتلر متسائلاً كيف يحدث حرق 6 ملايين يهودي وعدد اليهود في أوربا كلها لم يكن يتجاوز آنذاك 3.5 مليون يهودي حسب الإحصائيات الرسمية للدول الأوربية؟ وقد حمت عليه المحكمة بالسجن والغرامة بتهمة إنكار المحرقة ومعاداة السامية.

* إن أصدق دليل على ذلك قراءة وتفسير نصوص ما عرف بلوح بني إسرائيل، فرغم الكميات الهائلة من الآثار المكتشفة في مصر، والتي تغطي فترات التاريخ المصري القديم كله، وقدمت صورة تكاد تكون متكاملة لذلك التاريخ، إلا أن الباحثين لم يعثروا على أي أثر يشير من قريب أو بعيد إلى بني إسرائيل، وهو ما يثير الاستغراب لأن هؤلاء كما تقول التوراة عاشوا مئات السنين في مصر، ثم خرجوا منها بقيادة

المبحث الثالث: الفكر التاريخي التوراتي وصدمة علم الآثار:

شهد علم الآثار خلال القرون الثلاثة الماضية تقدماً كبيراً على صعيد الاكتشافات الأثرية والتقنيات المساعدة في البحث الأثري، وقد ترافق ذلك مع موجة التوسع الاستعماري الغربي ذات التوجهات الاقتصادية والسياسية والعسكرية المغلفة بالروح العقائدية، وخاصة تلك الموجهة نحو الشرق، مسرح الرواية التاريخية التوراتية، وقد اعتقد أنصار الفكر التاريخي التوراتي أن الفرصة صارت مواتية لإثبات حقائق التاريخ التوراتي أثرياً، حيث لا مجال لإنكار المعارضين لذلك الفكر وأطروحاته، وقد أثر هذا على هدف البحث الأثري نفسه، الذي صار أسير نتائج موضوعة سلفاً، وهي تفسير أي أثر بما يتوافق مع الطرح التوراتي دون سواه حتى لو تعارض ذلك مع أي دلالات علمية للأثر المكتشف.

كانت مصر والعراق الهدف الأول والأكثر إغراءاً للحملات الأثرية، حيث تشير الأدلة إلى إمكانية تحقيق نتائج شبه مؤكدة، بناءاً على كميات الآثار الضخمة الظاهرة للعيان، وأيضاً لأن المنطقتين كانتا جزءاً من الجغرافية التاريخية التوراتية، وكما هو معروف فقد حققت تلك الحملات نتائج باهرة على صعيد الكشف الأثري، لكنها كانت مخيبة للآمال بالنسبة للفكر التاريخي التوراتي، فالكميات الوفيرة من المخلفات الأثرية لم تشر من قريب أو بعيد إلى الوجود التاريخي للرواية التوراتية، بل أنها على العكس أكدت أن معظم تلك الروايات تعود لشعوب أخرى، أقدم عهداً من الجماعة الإسرائيلية، وتم اقتباسها ونسبتها إلى غير أهلها مثل قصة الطوفان، وأمام ذلك لجأ الفكر التوراتي إلى الترويج لاستنتاجات ملتوية والترويج لها على نطاق واسع كي تصير حقائق مؤكدة

موسى، وأسسوا مملكتهم العظيمة في فلسطين والتي كانت لها علاقات وثيقة بمصر وفراعنتها سلماً وحرباً –وصلت إلى حد– مصاهرة فرعون مصر. أما هذه اللوحة الحجرية المنقوشة فهي تعود للملك "مرنبتاح 1223–1211ق.م" وعنوانها قصيدة النصر، وهي تذكر انتصار هذا الملك على أعدائه، وتذكر المدن والأقاليم والجماعات التي هزمها ومن هذه المدن مدينة "يرزل أو جرزل" حيث أن الشكل الأول قرئ يا أو جيم، نتيجة للتقارب بين شكلي الحرفين، وقد فسرها الباحثون التوراتيون بأنها "إسرائيل" وأن النقاش قد أخطأ في التهجئة، واعتبروها دليلاً مؤكداً على معرفة المصريين القدماء بإسرائيل، وهي المرة الوحيدة التي يذكر فيها اسم قريب من هذا المعنى، وأطلقوا عليها اسم لوحة إسرائيل، وانتشرت هذه التسمية حتى أن الباحثين العرب ترجموها كما هي المؤلفات الغربية، دون تمحيص أو تدقيق أو عودة إلى الأصل المصري. انظر في ذلك: Gardiner, A. H., (1962), Egyptien of the Pharaons, Oxford, p. 273 وكذلك: Wilson, J. A., (1950), Egyptian Historical Texts, in Ancient Near East Texts, Prinston, p. p. 376-379 وأيضاً: حسن، سليم، (2001)، الأدب المصري القديم، ج2، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص214–219، وكذلك: صالح، عبد العزيز، مصر والشرق الأدنى، ج1، ص225، وكذلك: فخري، أحمد، مصر الفرعونية، ص358، وهناك من يعترض بشدة على وصفها (بلوحة إسرائيل) لعدم التأكد من صحة قراءة الكلمة، ويرى تسميتها بلوحة أمنحتب الثالث، أو لوحة انتصار مرنبتاح، أو اللوحة ذات النصين لاحتوائها على نصين أحدهما لأمنحتب الثالث والآخر لمرنبتاح. انظر حول ذلك: عبده، رمضان، (أكتوبر 1995)، اللوحة ذات النصين، مجلة كلية الآداب، جامعة المنيا، مج 18، ج1، ص233–266، وأظن إن المعطيات الراهنة تؤيد هذه الفكرة.

وفق مبدأ الدعاية النازية الذي كان يقوم على قاعدة تكرار الكذبة حتى تصير حقيقة (محمد، 2007، 632).

في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين، بدأ التنفيذ الفعلي للمشروع السياسي الصهيوني في فلسطين، والذي صار حقيقة واقعة عام 1948 بقيام ما عرف بدولة إسرائيل، والتي استطاعت بعد ذلك هزيمة العرب واحتلال مساحات واسعة من الأراضي العربية التي يعتبرها التوراتيون جزءاً من أرض الميعاد، والساحة الرئيسة التي جرت عليها أحداث التاريخ اليهودي، وقد اعتقد الباحثون التوراتيون أن هناك فرصة تاريخية كاملة للحصول على قدر كبير من المخلفات الأثرية التي تؤكد ما ذكرته النصوص التوراتية.

سخرت السلطات الإسرائيلية عدداً كبيراً من الباحثين الأثريين، الذين استعانوا بمراكز بحث عالمية تتبنى الرواية التوراتية، وقدمت لها دعماً كبيراً، وقامت هذه المجموعات البحثية بعمليات تنقيب واسعة شملت كل شبر تقريباً من الأراضي الفلسطينية، ولعل أشهرها عمليات التنقيب الواسعة في القدس، وخاصة تحت الحرم القدسي، ولكن كل هذه الجهود لم تثمر عن أية نتيجة، ولم تعثر على أي أثر يمكن نسبته إلى بني إسرائيل أو مملكتهم التوراتية، أما الأثر الوحيد الذي عثر عليه فهو يشبه تماماً قصة "لوح إسرائيل"، وكان عبارة عن كسرة فخار صغيرة عثر عليها في موقع كنعاني شمال فلسطين (محمد، 2007، 632)، ومن بين مقاطعه ستة أحرف كنعانية هي: (ك، ب، ت، د، و، د)، وقد تشبث بها الباحثون وقرؤوها ("مل" ك – ب – "ي" – ت – د – "او" – ود) (ملك بيت داوود) بعد وضع حروف مفترضة مكملة للنص وقالوا أنها إشارة واضحة إلى "مملكة داوود" والد النبي سليمان، متجاهلين كل الاعتراضات على هذا الاستنتاج ومنها:

1- إن الموقع وباعتراف جميع الباحثين هو موقع كنعاني واضح.
2- إن الكتابة هي كتابة كنعانية لاشك فيها، ولو صدقنا ذلك الاستنتاج فإنه يعني أن كتابة وثقافة داوود وأسرته كانت كنعانية، ولا علاقة له بما يعرف ببني إسرائيل.
3- إن كلمة بيت في جميع اللهجات الكنعانية لا تعني بالضرورة مملكة، بل البيت بالمعنى المعروف، والتعسف في تأويلها بمعنى البيت الحاكم لا دليل عليه.
4- إن الاسم داوود، من التسميات الشائعة لدى الكنعانيين، ولم يقتصر على "داوود" ملك بني إسرائيل المزعوم.

إن العجز الكامل عن إيجاد أي دليل أثري والسطحية الواضحة في تفسير وتأويل هذا الأثر اليتيم، دفعت واحد من كبار الباحثين الإسرائيليين إلى التعبير عن خيبة الأمل واليأس الواضح حين

قال: إننا لا نستطيع اليوم أن نبحث عن التاريخ في روايات الآباء والخروج ويشوع. وبصورة خاصة فإن إثبات الفتح العسكري لأرض كنعان كما ورد في سفر يشوع قد غدا مجهوداً لا طائل منه بعد أن جاءت كل الشواهد الأثرية مناقضة له وهكذا فإن الفتح العسكري لأرض كنعان ومملكة داوود وسليمان هي ضرب من الخيال (وايتلام، 1999، 204-216).

خاتمة: نخلص إلى مجموعة من الاستنتاجات منها:

1- صدق القرآن الكريم في تأكيده على تحريف النص التوراتي، والحاجة الملحة لتأكيد ذلك من خلال البحث العلمي في مجال علم التاريخ والآثار، الذي يكفل إقناع الآخرين من غير المسلمين.

2- الدراسة العميقة لطبيعة ودوافع التحالف الفكري بين الفكرين المسيحي الغربي والتوراتي.

3- إن الفكر التاريخي التوراتي يعيش مأزقاً حرجاً بعد أن عجز عن إيجاد أي دليل علمي مقنع لإثبات مقولاته التاريخية.

4- ضرورة الابتعاد عن النقل الحرفي للترجمات الغربية للنصوص التاريخية الشرقية القديمة، والعمل على العودة إلى تلك النصوص وقراءتها من جديد، خاصة وإن الناطقين بالعربية هم الأقدر على فهم الكثير من خفايا تلك النصوص، نتيجة للتقارب الشديد بين العربية ولغات الشرق القديم.

5- الاهتمام بمتابعة آخر الانجازات الأثرية، وتسخيرها لخدمة علمي التاريخ والآثار العربيين.

قائمة المراجع

1- سعيد، إدوارد؛ كمال أبو ديب (1997) . الإمبريالية والثقافة .- بيروت: دار الآداب.

2- السواح، فراس (2003) . تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود.- ط3 .- دمشق : دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة.

3- لومير، اندريه ؛ أنطوان الهاشم (1999). تاريخ الشعب العبري .- بيروت : د-ن.

4- محمد، عبد القادر نمر (2007) . "مدينة القدس تاريخ وحضارة" .- اعمال المؤتمر الدولي لنصرة القدس.- منشورات القدس نت للدراسات والإعلام، و"دان" هي التسمية العبرية لموقع أثري قديم في منطقة الجولان السورية المحتلة.

5- وايتلام، كيت ؛ سحر الهنيدي (1999) .اختلاق إسرائيل القديمة .- الكويت: عالم المعرفة ،سلسلة عالم المعرفة ع249.

6- Kenyon, Kathleen, (1974), Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London.

7- Whitelam, kaith, The Invention of ancient Israel.- Whitelam, kaith, The Invention